إنها السنن

دروس وعبر في سنن الله و أيامه

إعداد

حمد بن نجم الدهلوس

مصدر هذه المادة :

الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com

دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

دروس في سنن الله وأيامه

الحمد لله المبـدي المعيـد، الفعـال لما يريد، خلق السـموات والأرض بـالحق يكـور الليل على النهار، ويكور النهـار على الليـل، أحصى على الخلق أعمالهم فهو بكل شيء محيـط، وعلى كل شـيء شـهيد، أحمـده سبحانه وأشكره وأسأله من فضله المزيـد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له وهو الولي الحميـد، وأشـهد أن محمـدًا عبد الله ورسوله دعا إلى الله وهاجر في سبيل الله وجاهد وصـابر حـتى أقـام الملة ورفع راية التوحيد، صلى الله عليه وسـلم وبـارك وعلى آله وصـحبه أهل الهجـرة والنصـرة والتأييـد، ومن تبعهم بإحسـان إلى يـوم الدين.

أما بعد:

فلا يخفى على كـلِّ ذي لبٍّ أن لله سـننًا ونواميس ومقـادير قـدرها جـلَّ وعز لحكمة يعلمهـا، وهو الحكيم الخبـير، ومن هـذه

السنن والمقادير التي قدرها الله تبارك وتعالى الابتلاءات بشتى أنواعها، وإنه في زماننا هذا خاصة قد كثرت وبانت واتضحت ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] وهي والله كفتنة الذهب حينما يصفى تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف، فهي توضح بجلاء عن معادن النفوس وجواهرها فتبين من أسس بنيانه على شفا جرف هار - عياذًا بالله - ومن أسس بُنيانه على تقوى من الله ورضوان؛ لذلك قال ﷺ: «**يبتلى الرجل على قدر دينه..**»[1] فعلى المؤمن حين تنزل هذه الفتن أن يستعيذ بالله من شرورها، وأن يصبر ويثبت، ويسأل الله العون والتأييد، وحينما يفعل ذلك فإنه يسكن ويطمئن وترتاح نفسه لوعد الله ونصره.

* ولما رأيت حالنا اليوم كما قال الله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1-3] أردت أن أَذْكُرَ

---

1 (?) الترمذي وأحمد والبيهقي.

بعض هـذه السـنن الـتي قـدَّرها الله وأذكِّرَ نفسي وإخـــواني المســـلمين بما فيها من الـدروس والعـبر، وقـدوتي في ذلك رسـول الله محمد إذ يقول كما في صحيح الإمــام مسلم من حديث عبد الــرحمن بن عبد رب الكعبة قـال: دخلت المسـجد فـإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جـالس في ظل الكعبة والناس مجتمعـون عليـه، فـأتيتهم فجلست إليه فقـال: كنا مع رسـول الله في سـفر فنزلنا منزلاً فمنا من يصلحُ خبـاءه ومنا من ينتضل[1]، ومنا من هو في جَشَرِهِ[2] إذ نادى منـــادي رســـول الله الصـــلاة جامعـــة، فاجتمعنا إلى رسول الله فقـال: **«إنه لم يكن نـبي قبلي إلا كـان حقًّا عليه أن يـــدل أمته على خـــير ما يعلمه لهم، وينـــذرهم شـــرَّ ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هـذه جُعل عافيتها في أولهـا، وسيصـــــيب آخرها بلاءُ وأمـــــورٌ تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقِّق بعضها بعضًـــــا، وتجيء الفتنة فيقـــــول المـؤمن: هـذه مهلكـتي، ثم تنكشف**

---

1 (?) المناضلة: وهي المراماة بالنشاب.

2 (?) جشره: هي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها.

وتجيء الفتنة فيقول المـؤمن: هـذه هذه. فمن أحبَّ أن يزحـزح عن النـار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه».

والله أسـأل أن يعينـني في بيـان بعضـها وتوضيحه نصحًا لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وأسأله أن يجنبني فيها الخطأ والزلـــــل، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل وفيما نأتي ونـذر وهو حسـبنا ونعم الوكيل.

وقد قــرأت هــذه الرســالة على شــيخنا فضـيلة الشـيخ عبد الـرحمن الـبراك حفظه الله ورعـــاه وعلق عليها بعض التعليقـــات وأوصى بطباعتها فله مني الشكر والدعاء.

هــذا وقد اســتعنت في هــذه الــدروس ببعض كتب أهل العلم والـدعوة، واسـتفدت منها كثـــيرًا، كَتَبَ الله لأصـــحابها الأجر والمثوبة، وأنبِّه أيضًا أنني في هذه الرســالة أشير إلى مواطن الآيات من السور وأُخــرج الأحـاديث من غـير إطالـة، ويا أخي الكـريم في هذه الرسالة – باستثناء كلام الله وكلام

رســــــوله – كلام بشر وهو عرضة للخطأ والنسيان والقصور، والمعصـوم من عصـمه الله.

فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، والله ورســوله من ذلك بريئــان، وصــلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

السنن الكونية الإلهية

إن لله سننًا في خليقته لا تتبدل ولا تتغير ومنها:

1- أن الأمور لا تبقى على حال:

فالله جل شأنه من سنته أنه يغيِّر أحوال العباد وينقلهم من حال إلى حال، فالأيام دول ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: 140] فمرة شدة ومرة رخاء وحال غنى وبعده فقر، ويوم عزة وآخر ذل، وهكذا تتداول الأيام وتتقلب لحكمة يعلمها الله عز وجل، وقد ذُكِرَ أن محمد المهلبي – وكان من أهل الأدب – أصابته فاقة شديدة فبينما هو في بعض أسفاره سمعه رفيق له وهو يقول:

ألا موت يُباع فأشتريه
فهذا العيش ما لا خيرَ فيه
ألا رحم المهيمن نفس حر
تصدق بالوفاة على أخيه

فرثى له، وأحضر له بدرهم ما سدَّ به رمقه، وتفرقا ثم ترقى المهلبي إلى

الــوزارة، ودارت الأيــام على صــاحبه، فكتب إليه قائلاً:

ألا قل للوزير فدته نفسي
مقال مذكر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنك عيش
ألا موت يُباع فأشتريه

فلما قرأها أمر له بســــبعمائة درهم ثم قلَّده عملاً يرتزق منه.

فيا عبد الله، اعلم رحمك الله أنه لا يأس من رحمة اللــه، وأنه إذا ضـاق الأمر اتســع، وإذا اشــتد الحبل انقطــع، وإذا اشــتد ظلام الليل داهمه ضياء الفجر فسطع ﴿**فَـإِنَّ مَـعَ الْعُسْـرِ يُسْـرًا * إِنَّ مَـعَ الْعُسْـرِ يُسْـرًا**﴾ [الشرح: 5، 6] فمن حِكَم الله وجود الضدين وهو عــام في كل مكــان وزمــان؛ لأن لكل منهما أجل مسمى: العسر واليسر، والفـرح والحــــزن، والكــــرب والرخــــاء، والصــــحة والسقم، والحياة والمـوت، والفقر والغـنى، والنصر والهزيمــة. وكتــاب الله خــير دليل على ذلـك؛ فكم قصَّ الله علينا في القـرآن عن الأمم والشـــعوب والأشــــخاص ومن الأحوال التي كانوا عليها ثم تبدلت، والســنة

كـذلك والتـاريخ والحـوادث والوقـائع تحكي ذلك.

2- أن المصـــائب والشـــدائد والفتن والنوازل تبيِّن معادن الناس:

قـــال تعـــالى: ﴿**مَـــا كَـــانَ اللَّهُ لِيَـــذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [آل عمـــران: 179] وقـال تعـالى: ﴿**الم * أَحَسِـبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾ [العنكبوت: 1، 2] فلولا هـذه الابتلاءات مـا عُرِفَ المؤمن الصـادق من الـذي في قلبـه دخن، وأعظم درس في هذه السنة الربانية ما علمتنا إياه السيرة النبوية كما في غـزوة الأحـــزاب ﴿**وَإِذْ يَقُـــولُ الْمُنَـــافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَـا وَعَـدَنَا اللَّهُ وَرَسُـولُهُ إِلَّا غُـرُورًا**﴾ [الأحــزاب: 12] فمثل هـذه الشـدائد الـتي يقـدرها اللــه تكشــف عن الحقيقــة الإيمانيــة وتجرد الإنسان أمام نفسه، فكل الناس يــدَّعي الإيمــان ولكن الــدعاوى إذا لم يقم عليها أصحابها بينـات يكن أصـحابها أدعياء، فبهـذه الشـدائد تقـف النفـوس

على حقيقة ما هي عليه، فالصحيح لا يعرف قيمة الصحة إلا حينما يعرف المرض أو يصاب به، ولا يعرف الإنسان نعمة الأمن إلا حينما يبتلى بالخوف والهلع.

والحادثات وإن أصابك بؤسها
فهو الذي أنباك كيف نعيمها

3- إن الله ما رفع شيئًا إلا وضعه:

وهذه السنة الربانية قد أخبر بها النبي في الحديث الصحيح، فعن أنس بن مالك قال: كانت العَضْبَاء لا تسبق فجاء أعرابي على قَعَوْدٍ له فسابقها فسبقها الأعرابي، فكأنَّ ذلك شقَّ على أصحاب رسول الله فقال : «**حق على الله ألا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه**»[1].

فانظر يا أخي هي حادثة بسيطة جمل يسبق آخر وانتهت القصة لكن هذا الخبر من أصدق الخلق عن سنة من سنن الله في هذه الدنيا، فليس الأمر مقصورًا على ذلك القَعود بل كل ما ارتفع من هذه الدنيا

---

1 (?) أبو داود والنسائي.

فلابد أن يعـــود بعد الصـــعود، وهـــذه من الـــدروس الميدانية في المدرسة المحمدية يؤكد هذه السنة في هذه الحادثة، فهي وإن كانت صغيرة ولكن شأنها خطير أعني هـذه السنة فانتبه لها.

فمن حكمها أن البشر مهما أوتــــوا من قوة وشدة فنهايتها إلى ضعف، ومهما كانت لهم من عـزة فنهايتها إلى زوال، وينسـحب هذا على كل الخلق فالقوة المطلقة والعزة المطلقة التي لا تتغـير ولا تتبـدل هيب قـوة الله وحده الواحد القهار العزيز الجبار، فلله العـزة جميعًا وهو القـوي القهـار، فسـبحان من لا يـــزول ملكه ولا تضـــعف قوته وإليه يرجع الأمر كله.

ولكي نتأمل هذه السـنة أكـثر فـأكثر علينا مراجعة التاريخ.

اقرأ التاريخ إذ فيه العبر
ضلَّ قوم ليس يدرون الأثر
وتأمل كيف أفنى ملكهم
من على الملك تولى وقهر

فكم من دولة زالت بعد ملك ومنعة

كانت غالبة فأصبحت مغلوبة، أصـبحت أثـرًا بعد عين، وكتاب ربنا فيه القصص الحق عن ذلـك، وكم من ملـكٍ حسب أنه سَـيُخلَّدُ في الملك ويحكم على الـــدوام فمُـــزِّقَ ملكه وَشُـــتِّتَ شـمله، وصـار عــبرة للمعتــبرين وفرعون دليل على ذلك، وهكذا أهل المـال والكنـوز والـدور والقصـور وقـارون مثـال لـذلك على مـرِّ الـدهور والعصـور في ليلة وضحاها أصبح فقيرًا وبداره مقبـورًا وأصـبح بعد العلو وضـيعًا ﴿**فَخَسَـفْنَا بِـهِ وَبِـدَارِهِ الْأَرْضَ**﴾ [القصص: 81]، حقًّا والله إن الله ما رفع شـيئًا في الـدنيا إلا حطَّه، يُـذْكَرُ أنه لما تولى بعض بـني أمية الخلافة قـالوا: سـوف تبقى لنا على الـــدوام فما أكمل – والله – ملكهم ثمانين عامًا.

ومن حكم هذه السنة ولطيف دقائقها أن يعلم النـاس كل النـاس، والخلق كل الخلق شعوبًا وأممًا حكامًا ومحكومين وحتى الجن والشياطين! أن هناك حقيقة واحـدة هي أن الله ما رفع شــيئًا إلا حطَّه، وأن ﴿**كُـلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَـــانٍ * وَيَبْقَى وَجْـــهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: 26، 27].

4- أن البلاء ما نـــزل إلا بـــذنب وما رفع إلا بتوبة:

ويا ليت قـومي يعلمـون أن هـذه السـنة الربانية قد فصـلها الله في كتابـه، وجـاءت السـنة النبوية موضـحة لها ومبينة إياهـا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!!! بل لقد ظهر في المسلمين من ينكر هذه السـنة الربانية ويردها ولنا أن ننظر حال الأمم الـتي جهلت أو تجاهلت هذه السنة الإلهية، قـال تعـالى: ﴿**فَكُلًّا أَخَـذْنَا بِذَنْبِـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْـهُ الصَّـيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَـفْنَا بِـهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَـانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [العنكبوت: 40].

فانظر كيف قال الله ﴿**بِذَنْبِـهِ**﴾ أي بسـبب ذنبه، فالذنوب السـبب المباشر بل هي من أعظم أسباب العذاب والعقوبة التي يرسلها الله على خلقه سـنة ربانية وحكمة إلهية فـ «عاد» أخذهم حاصب: وهو الـريح الصرصر التي تتطـاير معها حصـياء الأرض فتضـربهم وتقتلهم، و «ثمـود» أخـذتهم الصـيحة،

و«قــارون» خسف الله به وبــداره الأرض، و«فرعــون وهامــان» وغــيرهم، سـنة الله ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾ [الأحـزاب: 62] ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْـوِيلًا**﴾ [فـاطر: 43]. وهنا لطيفة دقيقة في هـــذه الآية العظيمة تدل أيضًا على هذه السنة فتأمل كيف عـدد الله المعاصي المُرتكبـــة: كـــالكفر باللـــه، والتكـذيب والصد عن سـبيل اللـه، ومحاولة قتل رسل اللـــــه، وفعل الفـــــواحش المستقبحة، والاغترار بإمهـال اللـه، وغيرها من المعاصي كلها أخذ الله فاعليها بســبب ذنــوبهم، وكــان ذلك هو الســبب المباشر لعقوبة الله.

وحتى هذه العقوبات تنوعت بتنوع الذنب المرتكب!! حتى لا يأتي قائل فيقـول: هـذه العقوبة وقعت فقط بسبب هذا الـذنب دون غيره ولا تـأتي العقوبة إلا لهـذا الـذنب دون غـيره من الـذنوب، فهل أدركت يا عبد الله حكمة الله وإعجاز هـذا الكتـاب العظيم في بيــان الحــال للنــاس على أكمل وجه لكل زمان ومكان؟!

وقد جـــاء في الصـــحيح من حـــديث أم

المؤمـنين زينب بنت جحش رضي الله عنها قـالت: اسـتيقظ رسـول الله ﷺ من النـوم محمـرًا وجهه وهو يقـول: **«لا إله إلا الله ويل للعرب من شـرٍّ قد اقـترب، فُتح اليـوم من ردم يـأجوج ومـأجود مثل هذه** – وعقد سفيان تسعين أو مائة – قيل: أنهلك وفينا الصـــالحون؟ **قـــال: نعم إذا كثر الخبث»**.

قـــال الحسن البصــــري رحمه الله في أصحاب المعاصي: هانوا عليه فعصــوه، ولو عزوا عليه لعصمهم.

وأخرج الإمام أحمد في مســنده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قـال: لما فتحت قبرص رأيت أبا الدرداء جالسًا وحده وهو يبكي. فقلت: يا أبا الـــدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير؟ ما أهون الخلق على الله إذا أضـــاعوا أمـــره ... بينما هي أمة قـــاهرة ظـاهرة لهم الملك تركـوا أمر الله فصـاروا إلى ما ترى.

فيا أخي الكـــريم: إن سن الله عز وجل تأبى أن تـترك المجـرمين من غـير قصـاص

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: 4]
فماذا ينتظر المقصرون؟!!

5- قانون الاستخلاف وسنة الله فيه:

المُلكُ لله وبيد الله يهبه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء! ولكن هناك سنة ربانية للاستخلاف في الأرض، فالله خلق الإنسان في الأرض ليستخلفه فيها فينظر ماذا يعمل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14] وهذا الاستخلاف مشترك بين البر والفاجر والمؤمن والكافر، فهو استخلاف ابتلاء لا استخلاف تكريم ومحبة فإن ذلك لا يكون إلا للأنبياء ومن اتبعهم على طريق الهدى، ولهذا الاستخلاف شروط ونواميس متى تحققت تحقق وعد الله ولن يخلف الله وعده ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ

كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

وهذه السنة كما كانت قائمة في الأمم السابقة فهي كذلك في الأمم اللاحقة! ولكن بشرط الإيمان والعمل الصالح والاستقامة على أمر الله وإقامة حدوده فمتى ما قصر الناس في شرط من هذه الشروط تأخر موعد الاستخلاف حتى تتحقق جميع الشروط، جزاءً وفاقًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وهنا قد يسأل سائل فيقول: أليس أمم الكفر لم تتحقق فيها هذه الشروط المذكورة؟ ومع ذلك نراها مُمكنة ومسيطرة وغالبة ... فكيف يكون ذلك؟

*** والجواب على هذا يكون من وجهين:**

الوجه الأول: يخص المسلمين والجواب متعلق بهم وذلك يوم تخليهم عن مكانتهم التي أرادها الله لهم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]،

مكـان السـيادة والقيـادة كما كـان سـلفنا الصالح حين ملكـوا الـدنيا مع وجـود ممالك عظيمة في ذلك الـــــوقت مثل الفــــرس والروم، ولكن لما بُعد الناس عن كتاب الله وسنة رسول الله وتكالبوا على الدنيا وآثروا الفاني على الباقي؛ فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشـهوات وأكلـوا الربا وفشا الزنا واتبعـوا خطـوات الشـيطان إلا من رحم الله كـان الجـــزاءُ من جنس العمل ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَـــوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِـــهِمْ**﴾ [الرعد: 11].

ولا إله إلى الله! ما أعظم الفاروق عمـر وهو يعلم الناس هذه السـنة الربانيـة، ولا عجب فهـــو الـــذي تخـــرَّج من مدرســـة المصــطفى وهــو التلميــذ النجيب الملهم! يقول لأصحابه يوم استلام مفاتيح القدس حينما طلبـوا منـه أن يـتزين ويخـرج بالأبهـة التي عليها الملوك في الشام، وهم يريـدون أن يعظم الإسلام في عيون النصارى؛ لأنهم يعظمون ذلك!! ولكن العظمة عند الفاروق شـكلها يختلـف وطريقهـا يختلـف وصـفتها تختلف كيـف ذلـك؟ العظمـة عنـد الفـاروق

هي في معرفة سنن الله وأيامه، وفي ذلـك يقول: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله» لا فض فوك أيها الفاروق.

بالله لفضك هذا سال من
أم قد صبيت على أفواهنا

نحن لا ننتصر على الأعداء بعدد ولا عتـاد وإن كـــان هـــذا مطلوبًا من بـــاب الأخذ بالأســـــباب، ولكن النصر الحقيقي بيد الله يهبه لمن يشاء، ومن سنة الله المعلومة أن الله ينصر من نصــره ﴿وَلَيَنْصُـرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُـرُهُ﴾ [الحج: 40] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُـوا إِنْ تَنْصُـــــرُوا اللَّهَ يَنْصُـــــرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] فيا ليت قومي يعلمون ...!

الوجه الثاني: وهو لما تساوينا والكفار بالاعتمـــاد على النفس وعـــدم التوكل على الله والركـــون إلى حولنا وقوتنا مع ما وافق هـــذا من حبِّ الـــدنيا وكراهية المـــوت وهو الـــوهن الـــذي شخَّصه رســـول اللـــه، والـــداء الخطير الذي حذَّرنا منه ﷺ؛ كان التفـــوق في الميدان والاستخلاف للأقوى والأكـثر تقـدمًا

وعــددًا وعُــدَّة، وهم بلا شك أوفر حظًّا في هذا الجانب، وهذا أمر بديهي لا ينكره عاقل فإلى الله المشـتكى وإليه الملتجأ ولا حـول ولا قـــوة إلا بالله ﴿قَـــدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُــنَنٌ فَسِــيرُوا فِي الْأَرْضِ فَــانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَـذِّبِينَ * هَـذَا بَيَـانٌ لِلنَّاسِ وَهُــدًى وَمَوْعِظَــةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138].

* * * *

دروس ووصايا

وبعد يا عبـــاد اللـــه، فإنه ولا شك ها هنا دروس ووصـــايا نتعلمها من هـــذه الســـنن الربانية ومنها:

1- أن كل شــيء قــدره الله وكتبه جل وعز، فما شـــاء كـــان وما لم يشأ لم يكن، وأن ما أصـــــابك لم يكن ليخطئك وما أخطاك لم يكن ليصيبُك، وهذا على مستوى الفـــــرد والمجتمع والأمم والـــــدول، وعليه فــالمطلوب الصــبر والاحتســاب والتمسك بالكتاب والسنة والإيمان بقضاء الله وقـدره خيره وشره حلوه ومـره وخاصة عند نـزول البلايا والفتن والرزايـــا، فـــإن الصـــبر عند الصــــدمة الأولى، فمن رضي فله الرضـــا، ومن ســخط فعليه ســخطه ولا يضـــرُّ الله شيئًا، ولا يضر إلا نفسيه، وسنة الله ماضــية ومشيئة الله نافذة ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَــوْفِ وَالْجُــوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْــوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّــرِ الصَّــابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِــيبَةٌ قَـالُوا إِنَّا لِلَّهِ**

وَإِنَّا إِلَيْـــــهِ رَاجِعُــــونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَــلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَــةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [البقرة: 155-157].

2- هـــذه الســـنن والمحن الـــتي يقدرها الله فيها شيء من التمحيص والاختبار، ليميز الله الخبيث من الطيب، وهكـــذا ســـنن الله تـــبين معـــادن النـــاس ومـواقفهم **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَـذَرَ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْـــهِ حَتَّى يَمِـــيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** [آل عمـران: 179] وهكـذا الفتن كما أخـبر بـذلك الصـادق المصـدوق حـتى ينقسم النـــاس إلى فســـطاطين: إيمـــان لا كفر فيـــه، وكفر لا إيمـــان فيه ويكـــون ذلك قريبًا من قيام الساعة حتى تـأتي ريح طيبة تقبض أرواح المؤمـنين كما جـاء في حـديث النواس بن سمعان عند الإمام مسـلم في صـحيحه، فنسـأل الله أن يثبتنا والمسـلمين أجمعين حتى نلقاه.

3- أن مما يخفف المصـــاب ويعين على الصـــبر والثبـــات في الفتن، أن يعلم أنه كلما مر وقت وزمن ويـــــوم على هـذه البلية ألقى عن كاهله بعضًـا من هـذه

الشدة والمحنة، وقرب من ذلك نور الفــرج وضياء الأمل وشعاع النهاية، وما ذاك إلا لأن زمن المحنة محــدود مــؤقت وكما قيــل: لا يـأس مع الأمـل، ولا أمل مع اليـأس، فكلما مرَّ بالمصاب ساعة فقد سقط عنه همٌّ تلك الساعة، وسقط عنه شيء من هذه الشدة، فالليل لا يبقى مع النهــار، فهــذا يُنقص من هذا وهذا يعلن خروج هذا، وذكروا أن يحـيى بن خالد البرمكي كتب لهـارون الرشـيد من السـجن أن كل ســاعة تمر تأخذ بحقها من عــذابي وبحقها من نعيمك حــتى نلقى الله عز وجل أنا وأنت، وهــذا كلام جميل يــدل على ذكاء قائله، فمن أصيب بمصيبة فليعلم أنه ينقص عنه كل يــوم جــزء من المصـيبة وكـذلك من الهمِّ والغمِّ والحـزن والعـذاب؛ لأن ذلك اليوم أخذ بحظه من المصاب كلما ذهبت شمسه.

قال عمارة بن عقيل:

ترى كل يوم مرّ من سوء

يمر بيوم من نعيمك يسلبُ

4- معادلة دقيقة محسـوبة سـلفًا: الصـــــــبر واليقين طريق إلى التمكين!!!

قال تعالى ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُـونَ**﴾ [السـجدة: 24] قـال ابن القيم رحمه اللـه: «فالنـــــــاس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقولوا أمنا، وإما أن لا يقولوا أمنا بل يستمروا على عمل السـيئات، فمن قـــــــال: أمنا امتحنه الله عز وجل وابتلاه وألبسه الابتلاء والاختبار ليـبين الصـادق من الكاذب.

ومن لم يقل أمنا فلا يحسب أنه يســـبق الرب لتجربته فـإن أحد لن يعجز الله وهـذه ســنة الله ... إلى أن قـــال: لكن المـــؤمن يحصل له من الألم ابتـــــداءً ثم تكـــــون له العاقبة في الدنيا والآخرة». اهـ.

قــال تعــالى: ﴿**أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَـــــــدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: 142].

5- هــذه الســـنن والابتلاءات فيها تنبيه للغافل وتــــــذكير للناسي، كي

يرجع إلى الله ويتوب إليـه، وهـذه لعلها من حكمها أنها تفتح للناس بابًا من أبواب التوبة فتجد بعض العصـــاة في هـــذه الفتن يرجع إلى الله ويراجع نفسه فيســـتغفر وينـــدم ويسـتقيم على أمر الله ويخـاف من عـذاب اللـه، قـال تعـالى: ﴿**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَـنَاتِ وَالسَّــيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُــونَ**﴾ [الأعــراف: 168].

وكذلك قد تفتح هذه المصــيبة على العبد بــاب التوكل وهو من أعظم أبــواب الخــير، فمع التوبة والرجـــوع يتوكل العبد على الله ويســتعين بـــه؛ لأنه يعلم أن من توكل على الله كفـــــاه، ومن التجأ إليه حمـــــاه، ومن استنصر به نصره.

وهـذا من أعظم أسـباب تجريد التوحيـد، فالتوكل تارة يكون اضـطرارًا وإلجـاءً بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا منجا من الله إلا إليــه، فإذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضـاقت عليه نفسه وظن أن لا منجا من الله إلا إليه، ففي هـذا المـوطن وعلى هـذه الحـال يـأتي الفــرج والتيســير ولا يتخلف البتة كما قال ابن القيم رحمه الله.

وتارة يكـون التوكل اختيـارًا وهـذا يكـون بحســـبه مع وجـــود الســـبب المفضي إلى المـراد، والـواجب القيـام بهما جميعًا بنص القرآن والسنة.

قال ابن القيم التوكل على الله نوعان:

أ- توكل عليه في جلب حـــــــــوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

ب- توكل عليه في حصـــــــــول ما يحبه ويرضـــــاه من الإيمـــــان واليقين والجهـــــاد والدعوة إليه[1].

فالشـــــاهد من هـــــذا: أنه قد يحصل في المصـــائب والنـــوازل نفعه للعبد من التوبة والاســـتغفار والتوكل والتوحيد والاســـتعانة والإنابة والخشية وغـير ذلك مما لا يعلمه إلا الله؛ لذلك قال كثير من الصـالحين: كم من محنة في طيها منحة.

6- أن المـؤمن لا يطلب الفتنة ولا يتمنَّاها:

ولكن إذا وقعت صـــــبر وصـــــابر ورابط

1 (?) الفوائد ص112.

وجاهد واعتصم بحبل الله ودعا الله وألح عليه بالـدعاء أن يكشف الكـروب، ويهـون الخطـــوب، ويثبت القلـــوب، وينجي له كل محبـــوب من شر هـــذه الفتن والســـبل والدروب.

وهـذا ما أرشـدنا إليه نبينا ﷺ حيث يقـول: **«لا تتمنـوا لقـاء العـدو وسـلوا الله العافية»**[1] وقد بـوَّب عليه البخـاري رحمه الله: باب كراهية لقاء العدو.

قــال الحافظ ابن حجر رحمه اللـــه: أمر بـــترك التمـــني لما فيه من التعـــرض للبلاء وخوف اغترار النفس إذ لا يؤمن غدرها عند الوقوع، ثم أمـرهم بالصـبر عند الوقـوع لما فيه من التعرض للبلاء. اهـ.

7- الدعاء:

وهـــذه من أعظم فوائد الابتلاءات أن يلح المؤمن على الله بالدعاء ويرجـوه ويـدعوه في كشف الضر ورفع الفتن والنجـاة منهـا، فيظهر الافتقـــــار والانكســـــار إلى الواحد القهار، قال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ**

---

[1] (?) البخاري ومسلم.

عَـذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّـاعَةُ أَغَيْـرَ اللَّهِ تَـدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ * بَـلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَـاءَ وَتَنْسَـوْنَ مَا تُشْـرِكُونَ * وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَـذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَـاءِ وَالضَّـرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَـرَّعُونَ * فَلَـوْلَا إِذْ جَـاءَهُمْ بَأْسُـنَا تَضَـرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ مَا كَـانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 40-43].

قـال ابن كثـير رحمه اللـه: أي لا تـدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه، ثم قال **بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ** وقـال ابن سعدي رحمه الله[1]: **فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَـاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَـرَّعُونَ** [الأنعـام: 42]، أي: بـالفقر والمـرض والآفـات والمصـائب رحمة منا بهم **لَعَلَّهُمْ يَتَضَـرَّعُونَ** إلينا ويلجئون عند الشدة إلينا.

فلا إله إلا الله سـؤالنا له وقضـاؤه إلينا حوائجنا عبادة له، وتركنا دعاءه إثم خطير.

أخرج الترمذي من حـديث أبي هريـرة قال: قال رسول اللـه : «**من لم يسـأل**

---

1 (?) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

الله يغضب عليه»[2] وما أحسن من قال:

لا تسألنَّ بُنيَّ آدم حاجةً
وسلِ الذي أبوابُه لا تحجبُ
الله يغضبُ إن تركت سؤالَه
وبنيُّ آدم حين يُسأل يغضبُ

قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾ [النمل: 62].

قال ابن القيم رحمه الله: «والدعاء يقطع بقبوله لعموم الآيات والأحاديث إذا استوفى شروط الصحة». اهـ.

وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلي بأسانيد جيدة والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن**

---

[2] (?) الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وهو حديث حسن إن شاء الله.
يغضب عليه: لأنه إما قانط وإما متكبر، وكل واحد من الأمرين موجب للغضب.

يصرف عنه من السوء مثلها».

وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: 60].

وعن عمر بن الخطاب ؓ قال: «أنا لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء، فمن ألهم الدعاء فإن الإجابة معه».

اللهم ألهمنا رشدنا وثبت أقدامنا، وأرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

يا حي يا قيوم نسألك الإخلاص في القول والعمل، والعفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه/ حمد بن نجم بن عبد الله الدهلوس

الرياض 18/7/1422هـ